بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أبي سَعيد الْخُدْرِيّ -رضي الله عنه- "إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خضِرَةٌ"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالحديث الثاني في باب التقوى هو حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[1] رواه مسلم.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الدنيا حلوة خَضِرة)) ذكر -عليه الصلاة والسلام- معنيين اثنين تتعلق بهما النفوس، الأول: من جهة الطعم، والثاني: من جهة النظر، أما من جهة الطعم فلا شك أن النفس تستهويها الأشياء الحلوة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحب الحلوى والعسل، وكان يعجبه -صلى الله عليه وسلم- الحلو البارد، وهو أكمل الناس -عليه الصلاة والسلام- ذوقاً، وأسلمهم طبعاً، فهذه أمور تميل إليها النفوس، وجُبلت على محبتها.

الصفة الثانية للدنيا: أنها خضرة، وذلك أيضاً مما تطمح إليه النفوس، ويستهويها وتحبه من جهة اللون، فإن النفس تبتهج بلون الخضرة وتحبه، وتلتذ بالنظر إليه، فهي لذة من جهة النظر، فالمكان الأخضر أو النبات الأخضر، أو نحو ذلك شيء يبهج النفس، فوصف النبي -صلى الله عليه وسلم- الدنيا بذينك الوصفين، وإن كان الخَضِر من النبات قد لا يكون مما يستجاد منه من أنواع البقول ونحوها، قد تكون رديئة، ولكن المقصود اللون، لونها يعجب الناظرين، فالدنيا كذلك ليست جيدة في حقيقتها، وليست ذات قيمة تستحق أن يتكالب عليها الناس، وأن يصرفوا أوقاتهم وأنفاسهم وأطماعهم، فتكون هذه الدنيا شغلاً شاغلاً لهم، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً من شربة ماء))[2].

وإذا نظر الإنسان إلى الكفار وما هم فيه من النعيم والتمكين، قد ذللت لهم الدنيا تذليلاً، إذا نظرت إلى مراكبهم، وإلى طرقهم ومساكنهم وحدائقهم، وإلى ما يتنعمون فيه من ألوان المرافق، والتسهيلات في أمور الحياة الدنيا، الإنسان تأتيه حاجته من غير تعب، تصل إلى بيته، كل ما أراد من أمور رسمية، ومن غير رسمية، البريد، والجوازات، والرخصة، وما إلى ذلك، وهو في بيته تصل إليه، أضف إلى ذلك ما يحصل من الكفالة للفقير والأرملة والإنسان الذي لا يعمل، فيُعطَى المسكن الذي يتخيره، وتُجرى عليه نفقة، ذُللت لهم الحياة، وما يتنعمون به فوق ذلك من الأجواء الجميلة غالباً، والأمطار سحّاء شتاء وصيفاً.

---

[1] - أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٠٩٨/٤)، رقم: (٢٧٤٢).

[2] - أخرجه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز وجل- (٥٦٠/٤)، رقم:(٢٣٢٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (١٣٧٦/٢)، رقم: (٤١١٠).

فإذا نظر الإنسان إلى مثل هذه الأشياء، وقارن حال أولائك بحال كثير من المسلمين الذي يتشحطون في الفقر، أستاذ جامعي راتبه مائتان وخمسون ريالاً في بعض البلاد الإسلامية، خريج الجامعة لربما لا يجد مائة وخمسين ريالاً راتباً، ماذا يعمل له؟ كيف يقيم أسرة؟.

الكثير من البلدان يعيشون في فقر يكسر ظهورهم، والكفار يتنعمون بألوان النعم والترف، وإذا نظرت إلى متوسط دخل الفرد عندهم وجدت أن أغنى الناس في بعض البلاد الإسلامية لا يصل إلى دخل الإنسان المتوسط في تلك البلاد، بل لربما كان الوزير في بعض البلاد الإسلامية لا يتقاضى ما يتقاضاه الموظف العادي في بعض تلك البلاد.

فأقول: الإنسان أحياناً إذا نظر بهذا النظر المجرد قد يحزن، ولكن إذا تذكر أن الدنيا حلوة خضرة، وتذكر أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، يعني: أقل من جناح البعوضة، لأنها لو كانت تساوي جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء، فمعناها: أقل من جناح بعوضة، وما قيمة جناح البعوضة أصلاً؟، وما قيمة البعوضة؟

إذا جلس الإنسان أحياناً يفكر في الثروات الهائلة التي يقيمون عليها حضارتهم، تؤخذ من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا، بلاد شاسعة، مزارع هائلة في بلاد إفريقية وآسيوية، بلاد لا تقطعها السيارة إلا بعد ساعات – أعني المزرعة الواحدة–، كل ذلك لهم، أخذوه منذ عشرات السنين حينما استعمروا تلك البلاد.

أضف إلى ذلك عقول البشر، الطبقات المثقفة في بلاد المسلمين، العلماء في العلوم الطبيعية وغيرها، أين يذهبون؟، يذهبون هناك؛ لأنه لا يجد ما يحتاج إليه لا المال ولا المختبرات، ولا غير ذلك من الأمور التي يحتاج إليها لينمي خبرته، ويطور نفسه.

خبرات، عقول، تهاجر وتذهب، كل ذلك أقل من جناح البعوضة، فهذا الأمر يضبط سلوك الإنسان، وعقله وتصرفه ودينه، فلا يتزعزع، فالدنيا تذهب، والدهر دُوَل، واليوم لهم وغداً لغيرهم، وإذا بقي للإنسان الدين فإن الدنيا تذهب وتجيء، فما عليه إلا أن يأخذ بأسباب القوة المادية، والله –عز وجل– سيبارك له في جهده ويرفعه وينصره، لكن المشكلة إذا ذهب الدين حتى لو بقيت الدنيا، فماذا إذا ذهب الدين، وذهبت الدنيا؟ شرار الناس فقراء بني إسرائيل لا ديناً أبقوا ولا دنيا جمعوا، نسأل الله العافية.

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– ينبهنا لهذا المعنى، يحذرنا: ((حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها))، يعني: يجعلكم خلفاء للذين كانوا قبلكم، نحن جئنا –هذا الجيل– وكانت أجيال قبلنا قد عمروا الأرض، كان فيهم التجار والزراع، والعمال، وفيهم أهل علم، وأهل صناعة، إلى غير ذلك مما يحتاجه البشر، هؤلاء جميعاً فنوا وجئنا بعدهم، ولم يكن بأيدينا شيء، فأعطانا الله –عز وجل– وأولانا لينظر كيف نعمل، ويختبرنا بما أعطانا.

فمن الناس من يغلب عليه الطمع، وحب الدنيا، والتهافت عليها، وتذهب نفسه عليها حسرات، حتى لو لم يكن عنده شيء، فبعض الناس ليس عنده شيء، والدنيا تقطع قلبه، وإذا كان عنده منها قليل فهذا القليل يعبده من دون الله –عز وجل.

ومن الناس من يعطيه الله الكثير، ولكنها في يده وليست في قبله، فليست المسألة مسألة كثرة أو قلة، إنما المسألة هي فقر القلب، وتعلق القلب، فإذا كان القلب فقيراً لغير الله –عز وجل– فإن فقره لا يقف عند حد،

وإذا كان القلب فارغاً من محبة الله، والتعلق به، والإقبال عليه فإنه لا يمكن أن يُملأ بشيء، ولو أعطي الدنيا بما فيها، فهو كالذي يشرب من ماء البحر.

الكفار الذين عندهم ما عندهم هل رأيت أحداً منهم يقول: أنا راضٍ، ولا أحتاج شيئاً أكثر من هذا؟، أبداً، فلا يزالون يأخذون منها ويزدادون بالحق وبالباطل، ويأكلون أموال الناس بالباطل إلا قليلاً، ومع ذلك ما توقفوا عند حد.

((فاتقوا الدنيا)) ليس معنى ذلك أن يتخلى الإنسان عنها ولا يعمرها، وإنما يأخذ المال من حله، ويتصرف فيه بحله، وينفق في حله في وجوه النفقات المشروعة والمباحة فقط، ويؤدي حق الله -عز وجل- فيه.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث آخر صور هذه الدنيا، لما حذر الدنيا قام رجل فقال: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: أين السائل؟، قال: أنا، قال: ((لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضِرةٌ حلوةٌ، وإن كل ما أنبت الربيعُ يقتل حَبَطاً أو يُلِم، إلا آكلة الخضِر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس، فاجترّت وثَلَطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوةٌ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع))[٣].

فالربيع: مطر ينزل ويطلع ربيع جميل، وجيد وتأكله الأنعام، والربيع خير، والحبَط: الدابة تأكل كثيراً وينتفخ بطنها ثم تموت، أو تقارب الإهلاك.

((إلا آكلة الخضِر، أكلت..)) يعني: هذه الدابة هي التي تنجو من الموت، وتنتفع بالربيع، فهي تأكل بمقدار معين، وكذلك الذي يتهافت على الدنيا لا يقف عند حد، فتهلكه الدنيا.

ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أيها الناس اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها))[٤]، يعني: لا داعي للتهافت والتهالك عليها، اتق الله، خذه من حله، سيأتيك رزقك، لا تأخذ من هنا وهناك مما لا يحل.

ثم قال: ((واتقوا النساء)) النساء من الدنيا، والله -عز وجل- يقول: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}** [آل عمران: ١٤].

فالنساء من الدنيا، وذكرها بعد الدنيا؛ لأنها من أعظم الفتنة التي في الدنيا، وإذا فسدت المرأة، فسد المجتمع، وإذا تبرجت المرأة، واستعرضت بزينتها فعلى المجتمع السلام، كثير من الناس -كما قال بعض السلف- يقول: لو أعطيت مفاتح خزائن الدنيا لأكون أميناً عليها لكنت أميناً، ولكن لا آمن نفسي على امرأة، وقد قال بعض السلف: لا تخلونّ بامرأة ولو قلت: أعلمها القرآن.

---

[٣]- أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٢٣٦٢/٥)، رقم: (٦٠٦٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (٧٢٧/٢)، رقم: (١٠٥٢).

[٤]- أخرجه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٧٢٥/٢)، رقم: (٢١٤٤).

وقصة الراهب التي يذكرها المفسرون –وهي من الأخبار الإسرائيلية– تبين هذا المعنى، وإن كانت لا يعتمد عليها لكن فيها عبرة، وهي أن أربعة من بني إسرائيل اكتتبوا في غزوة في الجهاد، وكان عندهم أخت، فبحثوا عن أحد يضعونها عنده، وكانوا يذهبون للجهاد مدة طويلة، فلم يجدوا أحداً، فذهبوا بها إلى راهب في دير يتعبد به، وقالوا: هذه أختنا ضعها عندك حتى نرجع، نحن نخرج في سبيل الله، فرفض، فقالوا: نبني لها حجرة بجوار صومعتك.

فكان الرجل يأتي بالطعام ويضعه عند حجرته هو عند الباب، ثم يدخل ويغلق الباب، فتخرج هي من غرفتها وتمشي حتى صومعته وتأخذ الطعام وترجع، ثم جاءه الشيطان، وقال له: يا فلان، اتق الله، هذه عورة وأمانة في يدك، كيف تتركها تخرج من حجرتها، حتى تأتي إلى صومعتك، وقد يتعرض لها أحد، قد تتعرض لمكروه، وهي أمانة عندك، أنت رجل، اخرج أنت إلى غرفتها وضعْ الطعام عند الباب، فصار يفعل هذا من باب الإحسان إليها والخوف عليها وحفظ الأمانة، ثم جاءه الشيطان، وقال: أنت راهب، وعابد ومعتاد على الوحدة والانفراد في هذه البرية، وفي هذه الأماكن الخالية، وهي ليس عندها ما يرد عليها الصوت، وجارية وصغيرة في مقتبل العمر لا تستطيع أن تصبر على هذه الوحدة، لربما تجن وتموت، فلماذا لا تجلس عند الباب وتحادثها عند باب حجرتها، وتذكرها، وتقص عليها بعض العبر وبعض القصص، وبعض الأشياء التي تعظها فيها، فصار يحدثها، كل يوم يحدثها، فما زال كذلك حتى صار يدخل عندها، ثم وقع بها، فحملت، ثم بعد ذلك قتلها.

فلما جاء إخوانها يسألون قال: نعم، الأخت كانت عابدة صوامة قوامة ذاكرة لله –عز وجل– ثم ألمّ بها مرض شديد فماتت، –رحمها الله–، فترحموا عليها، أراهم شجرة قال: قبرها تحتها، فشكروه ثم ذهبوا، فأصبحوا ذات يوم كل واحد منهم قام وهو متغير النفس، فقال أحدهم: والله لا أدري عن شيء رأيته هذه الليلة، وكل واحد قال: وأنا رأيت شيئاً هذه الليلة، فقص واحد منهم، ثم قال كل واحد منهم: وأنا رأيت نفس الرؤيا، والله ما ذاك إلا لشيء، فذهبوا إلى الراهب، وتهددوه وتوعدوه وآذوه، حتى اعترف بأنه فعل وفعل، ودلهم على القبر الحقيقي، فشكوه إلى ملكهم، فجيء به ووضع ليقتل، فجاءه الشيطان، فقال: أنا الذي أوقعتك في هذا كله، ولكنك اليوم لا تفضح نفسك، وإنما تفضح أهل دينك والرهبان، سجدة واحدة وأخلصك مما أنت فيه، فسجد فكان موته في ذلك.

هذه يذكرها المفسرون عند تفسير بعض الآيات، وبغض النظر عنها هي من الإسرائيليات لكن فيها عبرة.

فأقول: النساء فتنة، فكيف إذا قادت المرأة السيارة؟ كيف إذا خرجت متبرجة؟ ولذلك كان بعض الغربيين يقول: لن تتمكنوا من المسلمين حتى تغطوا المصحف بالحجاب، وتهدموا الكعبة، وقبر محمد –صلى الله عليه وسلم–، ويأتون بفرى وأكاذيب متنوعة، ويضحكون، وتصدقهم بعض النساء، وعندنا ناس جاهزون للهوى وللمجون، والهوى غلاب.

يأتون بأرقام غير صحيحة ويقولون: عندنا كذا سائق، وكم يحولون إلى بلادهم، وكم يحصل من خسائر مادية.

نقول: البلاد المجاورة لنا التي فيها السائقون أكثر من الشعب، وحريمهم يقدن، هل تخلصوا من السائقين؟ هل تخلصوا من الفساد والرذيلة وهتك الأعراض؟، أبداً، في ازدياد.

يقول لك: نصف المجتمع معطل، المجتمع لا يطير إلا بجناحين، والمرأة حبيسة مسكينة، مثل الدجاجة في البيت، المرأة لابد أن تطلع وتشتغل وتشارك الرجل، وقد أثبتت نفسها أنها في كل المجالات، وتستطيع أن تزاحم الرجل، وتعمل جنباً إلى جنب، ولماذا لا تثقون بالنساء يشتغلن؟.

هي من أول تدرس ما تحتاج إليه من التدبير والطبخ والفقه والتوحيد، واليوم صارت أشياء ثانية، وصارت لابد أن تطلع وتشتغل في جميع المجالات.

المرأة مجالها تربي الأولاد، تحفظ الجيل، وتتقي الله في بيتها، تصلي فرضها، وتصوم شهرها، وتطيع زوجها، وهذا ضمان لها بدخول الجنة، وتبقى محفوظة، فإذا خرجت فُتنت وفَتنت.

وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان))[٥]، وقال –صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها))[٦].

فكيف إذا خرجت تزاحم الرجال، تبيع وتشتري، أو تعمل في أماكن مختلطة؟!، ثم أولائك الذين خرجت نساؤهم في المجتمعات الأخرى المترفة، هل تخلصوا من العمالة والسائقين والخادمات؟

الجواب: لا، فإنك لا ترى الواحد من الشعب إلا مثل الشعرة البيضاء في جلد ثور أسود، والباقي كأنك قاعد في بنجلاديش، أو في باكستان، أو في الهند، أو في أي بلد من بلاد الله الواسعة، وأهل البلد قلة.

فترى مربية في البيت، وخادمة، وسائقين، وليس في البيت إلا ثلاثة أو أربعة أنفار، والسائقون أكثر منهم، والخادمات والمربيات.

ثم أثبتت الدراسات التي أصدرتها الأمم المتحدة أن المرأة التي تخرج للعمل تكلف اقتصاد البلد أكثر من أربعين بالمائة، يعني: معناها أنها عبء زائد على البلد، وعلى المجتمع، إذا خرجت.

وخروجها من بيتها يعرضها للابتزاز، وهناك إحصائيات هائلة بعدد النساء اللاتي يتعرضن للتحرش في تلك المجتمعات.

ثم إذا نظرنا في المجتمعات الذين خرجت نساؤهم –وهن جدات الآن– المتبرجات قبل أكثر من مائة سنة، ما الذي حصل؟، هل صاروا في مصاف الأمم المتطورة والدول الصناعية الكبرى؟

من مائة سنة ونساؤهم متبرجات، ولا زالوا في العالم الثالث كما يسميه الأعداء، ولا زال عندهم بطالة وعندهم تخلف، وعندهم فقر يعيشه أغلب المجتمع، خرجت المرأة وتبرجت، وفعلت كل ما تريد، الجدة متبرجة فما بالك بالحفيدة!، وما زالوا على وضعهم.

---

[٥] – أخرجه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في الرجل يرى المرأة تعجبه (٣/٤٦٤)، رقم: (١١٥٨).

[٦] – أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب التشديد في خروج النساء إلى المسجد (١/٢٢٣)، رقم: (٥٧٠).

فهذا أمر ينبغي أن يتنبه له، فقد أظهر هؤلاء قرونهم هذه الأيام، ما عندنا إلا هذه القلعة الواحدة التي بقيت، يريدون تحطيمها، نسأل الله أن يحطمهم، ويكسر نفوسهم ويكبتهم، ويذلهم ويرجعهم خائبين صاغرين.

وإلا فهذا الأمر إذا فتح بابه لا يقف عند حد، يتهافت الناس عليه، ويصير الذي ينكره بعد مدة كأنه شاذ في المجتمع، وغريب، ومتشدد، ومتخلف، وإنسان يعيش في عصور الظلام، هكذا الشر إذا فتحت أبوابه.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.